

الانزياح وجوهه

د/ مويلح سمية

أستاذة محاضرة -أ-

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

تبنى الأسلوبية أساسا على ثنائية تكاملية، ترددت في البحوث اللسانية بمصطلحات متباينة هي ثنائية اللغة و الكلام، والتي ركر فرديناند دي سو سير عليها كثيرا في استنتاجاته اللسانية، وبعده اللسانيون الذين درجوا على منهجه، فهي عند ق قيوم (Gustave Guillaume) اللغة والخطاب- والجهاز والنص (système-texte) حسب ل. هيلمسالف (Luis Hjelmslev)-وطاقة القوة و طاقة الفعل (compétence performance) حسب شومسكي- والنمط والرسالة (code-message) حسب ياكبسون

¹، فالأسلوبية تتحدد بدءا بالركن الثاني لثنائية اللغة والكلام.

The stylistic basis based on dual complementary, echoed in research of tongue with varying terms are bilingual and speak, which focused upon workflow, Ferdinand de su much linguistic findings, and after the lingual who traditionally method is when s QAYYUM (Gustave Guillaume) language and speech-and text (système-texte) by l. hialmsalf (Luis Hjelmslev). the power of force and energy already (compétence performance) according to Chomsky-style and message (code-message) according to the stylistic yakubson determined from pillar II for bilingual speech.

يجعل سوسير من اللغة والكلام ركنان أساسيان لتكوين ما يسمى باللسان (language)، "لأنهما يجمعان المظاهر الفيزيائية والنفسية في النشاط اللغوي، ولا يعد اللسان موضوعا للسانيات"². فاللغة والكلام يشكلان الثنائية التي عكف دي سوسير على تحديد موضوع دراستها، وجعل التحام هذين العنصرين مما يدخل في تكوين اللسان، إذ تتجلى فيهما عوامل الإبداع اللغوي.

أقام دي سوسير تقابلا بين ما يسمى الدراسة التزامنية synchronie والدراسة التعاقبية Diachronie للغة، "و انتقد هذه الأخيرة لأن عالم اللغة لا يدرس-حسبها- اللغة، بل الحوادث التي تؤدي إلى تغييرها"³. و تجدر الإشارة إلى أن علم اللغة الدياكروني له اهتمامين، أحدهما يوافق الزمن في سيره نحو الأمام، وثانيهما على النقيض من ذلك يخالف الزمن فيرجع على عقبه أو هو يثبت في مكانه و هو بذلك تطوري تعاقبي، أما علم اللغة السنكروني (التزامني) فهو يهتم باللحظة الآنية الساكنة ليرصد حال المتكلم فيها.

و نشير إلى أن تناول الأسلوب الذي نحن بصدد، يهتم باللغة الأدبية بحكم أنها تحقق التفرد المتميز في الإبداع والذي يقوم على الاختيار الواعي، خارقا اللغة العادية بخروجه عن مألوف قواعدها، على عكس الاستعمال العادي الذي تشترك فيه جماعة من الأفراد، "وليس معنى هذا أننا نقيم حاجزا صلبا بين اللغة الأدبية ولغة التخاطب، لأن الأولى تستمد وجودها-بلا شك- من الثانية، فتقيم منها أبنية وتراكيب جديدة في الصوت والكلمة والجملة، ثم القطعة

بأكملها⁴، " فلغة الأدب توفر طاقات تعبيرية جمالية فنية، تنتج عنها آثار فنية لا متناهية، على عكس لغة التخاطب التي تكتفي بالإبلاغ دون وجود تأثير لهذا الأخير، وإن وجد فهو ضئيل جدا.

فالانزياح الذي جعلناه محورا للدراسة "هو خرق للقواعد، وخروج عن المألوف، واحتيال من المبدع على اللغة اللاشعورية، لتكون تعبيرا غير عادي عن عالم غير عادي، فاللغة يبدعها (المبدع) ليقول كلاما لا يمكن قوله بشكل آخر، ولا يكون الانزياح هدفا في ذاته خوفا من الإبهام، وإنما هو وسيلة لخلق الجمالية الشعرية، ويؤدي الانزياح وظيفته الدلالية والشعرية إذا كان مقبولا من المتلقي⁵، فالانزياح ليس هدفا في ذاته، إنما يستعمله المبدع للتعبير عما لا تستطيع اللغة العادية تصويره، فيخرج به عن المألوف خروجا معقولا ليحقق إنتاجا فنيا ذي أثر.

إلا أنه وبتبني فيرديناند دي سوسير لمبدأ المحايثة الذي يقوم على تفسير اللغة بذاتها، أصبحت اللسانيات علما، فالشعرية التي أوجدت للانزياح هذا الفضاء الرحب سارت على درب اللسانيات لاهتمامها باللغة في ذاتها، "ويكمن الفرق الوحيد بينهما في أن الشعرية لا تتخذ اللغة عامة موضوعا لها، بل تقتصر على شكل من أشكالها الخاصة"⁶، متمثلا في الشعر.

و الانزياح بمجاله الواسع يمس معظم الإجراءات التي توفر للكلمة حرية، تستطيع بموجبها الانفلات من معناها السطحي إلى ما هو أبلغ، لأجل ذلك اختلف النقاد في تناولهم لجوهر الانحراف وقيمته، "فثورن(Thorn) يكبر من قيمته الجمالية، ويطالب بأن يتعدى الانحراف البنية السطحية إلى البنية العميقة كما في الاستعارات والكنيات البعيدة من مثل (حزن القلم)، إذ أسند الحزن إلى ما لا يعقل، وهذا الانحراف هو سر الشاعرية"⁷، فلتحقيق الشاعرية يلجأ المبدع إلى إجراءات أسلوبية تمكنه من الولوج إلى أعماق الكلمة، مما يوفر له انحرافات تصبح لغته بموجبها شعرية.

كان للشكليين الروس الفضل في التأسيس لإجراء الانزياح رغم عدم وضوح منهجهم في تناول هذا الموضوع، إلا أننا نجد "كامن في مجموعة من مصطلحاتهم الإجرائية: كالأدبية، والوظيفة الشعرية، والشاعرية، والمهيمنة، وخيبة الانتظار"⁸، وذلك من خلال تمييزهم بين اللغة اليومية واللغة الشعرية.

ومن جعل الانزياح قاعدة لتحقيق الشاعرية، وإثبات الخاصية الأسلوبية فونتانيي، الذي أكد أن الانزياح تنتجه عبقرية اللغة "إذ تسمح بالابتعاد عن الاستعمال المألوف، فتوقع في نظام اللغة اضطرابا، يصبح هو نفسه انتظاما جديدا"⁹، فالانزياح ليس وليد العادة وإنما هو ناتج عن خرق نظام اللغة.

ويقر شامبان(Chapman R) أن الأسلوبية بما تحتويه من انحرافات، هي الكفيلة بإثبات شاعرية المبدع التي لا تتحقق إلا بترك أثر، ذلك أن "علم الأسلوب هو الذي يحدد المدى والكمية التي تتضح من خلالها لغة الشاعر بما فيها من سمات انحرافية، مع ملاحظة كيفية استخدام الأديب للخصائص المتعارف عليها عموما لإحداث تأثير خاص"¹⁰، فلتمييز الانحراف الذي يحدث على مستوى اللغة، لابد من توفر وعي صادق بالمستوى العادي للكلام، الذي نعتبره معيارا، فإدراك القاعدة أو المعيار يكفل عملية تمييز الانتهاك اللغوي.

ونجد جان كوهن وهو أحد رواد البحوث الشعرية يشترط من اللغة الشعرية الحافلة بالانزياحات أن تكون قابلة للفهم من طرف المتلقي، بحيث لا يؤثر خروجها عن المألوف في معقوليتها، ذلك "أن هذه الحرية المتاحة للمبدع لها

حدودها التي يجب مراعاتها، فكل شخص حر أن يقول ما يشاء، بشرط أن يكون مفهوماً ممن يوجه إليه الخطاب، لأن اللغة في الأصل همزة وصل، ولن يتحقق ذلك إذا كان الخطاب غير مفهوم¹¹، فاللغة تحمل على عاتقها دوراً اجتماعياً محضاً، إذ هي تعمل على الإبلاغ والإفهام، لذلك ألح جان كوهن على ضرورة عدم خروج لغة الشاعر من حيز المعقول لأن لا تنسلخ عن وظيفتها.

فالانزياح يتدخل في الدرس الأسلوبي كركن قار، لأنه لا يتحدد بعلاقته مع العناصر المكونة للنص وإنما هو يتحدد بعلاقته مع النظام الأساسي المتمثل في اللغة، فلا يمكننا تصور انزياح إلا بمعيار، هذا المعيار تحكمه القوانين المشكلة لنظام اللغة، والانزياح ليس هو الخروج غير المعقول، إنما هو ذلك الخرق اللغوي الذي ينتج عنه أثر فني يصاحبه ما أسميناه الشاعرية، لأجل ذلك نحاول عرض جملة التسميات التي وضعها منظرو الأسلوبية للدلالة على ما هو أصل أو معيار :

"فونتانيي (Fontanier)، يعبر عن المعيار بـ (الاستعمال الدارج l'usage ordinaire، الاستعمال المؤلف l'usage habituel، التعبير البسيط l'expression simple، التعبير الشائع l'expression commune). أما بالي Bally فيعبر عنه بالكلام لفردى le parler individuel، ونجد ماروزو Marouzeau يعبر عن المعيار بالوضع الحيادي l'état neutre و الدرجة الصفر le degré zéro، أما سبيتزر Spitzer فيسميه النمط العام la norme générale، والاستعمال العادي l'usage normale، في حين نجد والاك وفاران Wellek et Warren يسميانه الاستعمال السائر l'usage courant، وستاروبنسكي Starobinski يسميه الاستعمال المتوسط l'usage moyen، وتودوروف Todorov يطلق عليه تسمية السنن اللغوية les normes du langage، وجماعة مؤ le groupe mu تسمية le discours naïf أي الخطاب الساذج¹²."

تعددت أيضاً الدوال التي تعبر عن كسر السائد، ففاليري يسميه الانزياح l'écart والتجاوز l'abus، وسبيتزر يسميه الانحراف la déviation، وكوهن يطلق على الواقع العرضي تسمية الانتهاك le viol، أما تودوروف فيسميه خرق السنن la violation des normes، واللحن l'incorrection¹³.

قسم بعض النقاد الانزياح إلى خمسة أنواع:

- انزياحات يمكن أن تندرج -حسب امتدادها في النص- ضمن الانحرافات الوضعية والشاملة، فالانزياح الموضوعي مثل الاستعارة، أما الانزياح الشامل فإنه يصيب النص كله، مثل تردد وحدة لغوية معينة بكثرة لافتة للنظر، والتي يمكن رصدها بطريقة الإحصاء.
- انزياح يصنف طبقاً لعلاقته بنظام القواعد اللغوية، ويتوزع إلى (سليبي)، إذا اعتمد على (الخرق)، وإيجابي إذا اعتمد على الإضافة على ما هو مقرر، كالكافية.

■ انزياح يصنف باعتبار العلاقة بين المعيار والنص المدروس، فتننتج انزياحات داخلية، وأخرى خارجية، تتجلى الأولى في ظهور وحدة لغوية عن المعيار المتواجد في النص، وتكون الثانية بانحراف أسلوب النص على قواعد اللغة العامة.

■ انزياح يتجلى قياساً إلى المستوى اللغوي الذي يقع فيه، فتننتج بذلك انزياحات صرفية وأخرى دلالية أو نحوية أو فونولوجية.

ومن الانزياحات ما يتحدد انطلاقاً من ثنائية (الاختيار والتركيب)، مثل الاختلاف في تركيب الكلمات واستبدال وحدات لغوية بغيرها¹⁴.

مما سبق نخلص إلى أن الانزياح ليس غاية في ذاته، إنما هو إجراء أساسي نحقق من خلاله الشعرية، هذا ما يستدعي تنفيذ عملية مواءمة له ممثلة في إعادة البناء، والتي ترتقي بموجبها الشعرية لتصبح نظرية للعمليات الشعرية، ليتجلى بذلك الانزياح باعتباره انتهاك لنظام اللغة، فنحدده بأنه "الوجه المعكوس لعملية أساسية أخرى، إذ إن الشعر لا يدمر اللغة العادية إلا لكي يعيد بناءها على مستوى أعلى، فعقب فك البنية، الذي يقوم به الشكل البلاغي تحدث عملية إعادة بنية أخرى في نظام جديد"¹⁵، فالعلاقة التي تنشأ بين القاعدة و بين خرقها بفعل الانزياح هي التي تحدد الخاصية الأسلوبية وليس الانزياح في ذاته.

الهوامش:

- ¹ - ينظر، المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط1، 1982، ص38.
- ² - حسن ناظم، مفاهيم الشعرية-دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص51.
- ³ - حسن ناظم، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁴ - محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، دار نوبال للطباعة، القاهرة، ط1، 1994، ص186.
- ⁵ - خليل موسى، قراءات في الشعر العربي الحديث المعاصر (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق، د.ط، 2000، ص130-131.
- ⁶ - جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1986، ص40.
- ⁷ - محمد عزام، الأسلوبية منهجاً نقدياً، منشورات وزارة الثقافة-دمشق ط1989، 1، ص51.
- ⁸ - عمر أوكان، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق-الدار البيضاء، د.ط، 2001، ص169.
- ⁹ - المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص101.
- ¹⁰ - صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الآفاق الجديدة-بيروت، 1980، ص365-366.
- ¹¹ - محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص195.
- ¹² - ينظر، المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص99.
- ¹³ - ينظر، المسدي، المرجع نفسه، ص100-101.
- ¹⁴ - ينظر مصطفى السعدني، العدول، أسلوب تراثي في نقد الشعر، د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص37.
- ¹⁵ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار نوبال للطباعة-القاهرة، د.ط، ص72-73.